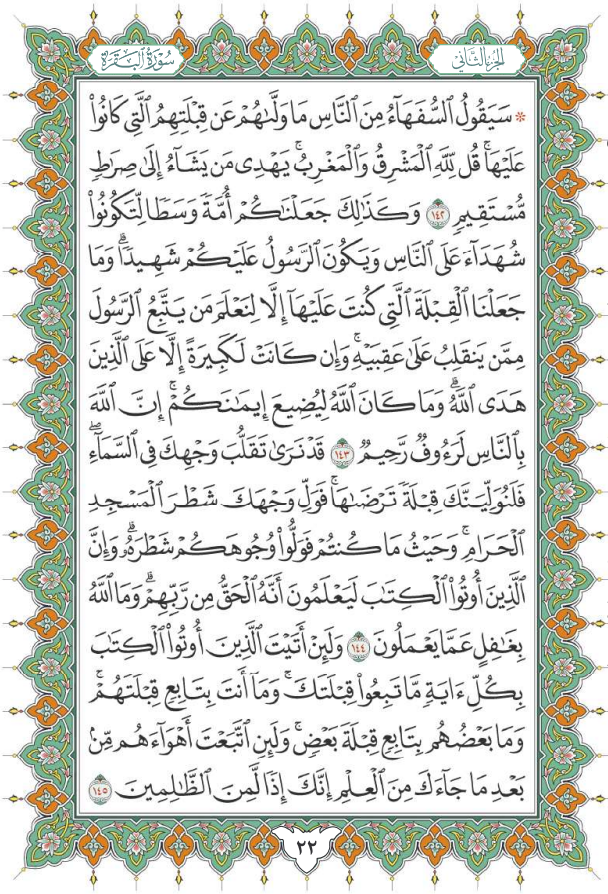

﴿١٤٢﴾ - إنّ ضعاف العقول الذين أضلّتهم أهواؤهم عن التّفكر والتّدبّر من اليهود والمشركين والمنافقين، سينكرون على المؤمنين تحوّلهم من قبلة بيت المقدس التي كانوا يتّجهون إليها في صلاتهم، إلى قبلة أخرى وهي الكعبة، فقل لهم أيّها النّبيّ: إنّ الجهات كلّها لله، لا فضل لجهة على أخرى بذاتها، بل الله هو الذي يختار منها ما يشاء لتكون قبلة للصّلاة، وهو يهدي بمشيئته كلّ أمّة من الأمم إلى طريق قويم يختاره لها ويخصّها به، وقد جاءت الرّسالة المحمّدية فنسخت ما قبلها من الرّسالات، وصارت القبلة الحقّة هي الكعبة.

﴿١٤٣﴾ - ولهذه المشيئة هديناكم إلى الطّريق الأقوم، وجعلناكم أمّة عدولًا خيارًا بما وفقناكم إليه من الدّين الصّحيح والعمل الصّالح لتكونوا مقرّري الحقّ بالنسبة للشّرائع السّابقة، لتشهدوا على النّاس في إفراطهم وتفريطهم، وليكون الرّسول مهيمنًا عليكم، يسدّدكم بإرشاده في حياته، وبنهجه وسنّته بعد وفاته. وأمّا عن قبلة بيت المقدس التي شرعناها لك حينًا من الدّهر، فإنّما جعلناها امتحانًا للمسلمين ليتميّز من يذعن فيقبلها عن طواعية، ومن يغلب عليه هوى تعصّبه العربيّ لتراث إبراهيم فيعصي أمر الله ويضلّ عن سواء السّبيل. ولقد كان الأمر بالتّوجّه إلى بيت المقدس من الأمور الشّاقّة إلا على من وفّقه الله بهدايته، وكان امتثال هذا الأمر من أركان الإيمان، فمن استقبل بيت المقدس عند الأمر باستقباله - إيمانًا منه وطاعة - فلن يضيع عليه ثواب إيمانه وطاعته.

﴿١٤٤﴾ - ولقد رأينا يا محمّد كيف كنت تتطلّع إلى السّماء عسى أن ينزل الوحي بتغيير قبلة بيت المقدس إلى الكعبة التي تحبّها لأنّها قبلة إبراهيم أبي الأنبياء، وأبي اليهود والعرب، وبها مقام إبراهيم، فهي لهذا القبلة الجامعة وإن كانت تخالف قبلة اليهود، فها نحن أولاء نؤتيك سؤلك فاستقبل في صلاتك المسجد الحرام، واستقبلوه كذلك أيّها المؤمنون في أيّ مكان أو جهة كنتم، وإنّ أهل الكتاب الذين ينكرون عليكم التّحوّل عن قبلة بيت المقدس قد عرفوا في كتبهم أنّكم أهل الكعبة، وعلموا أنّ أمر الله جار على تخصيص كلّ شريعة بقبلة، وأنّ هذا هو الحقّ من ربّهم، ولكنّهم يريدون فتنتكم وتشكيككم في دينكم، والله ليس غافلًا عنهم وهو يجزيهم بما يعملون.

﴿١٤٥﴾ - وما كان إنكار أهل الكتاب عليكم لشبهة تزيلها الحُجّة، بل هو إنكار عناد ومكابرة فلئن جئتهم أيّها الرّسول بكلّ حُجّة قطعيّة على أنّ قبلتك هي الحقّ ما تبعوا قبلتك، وإذا كان من اليهود من يطمع في رجوعك إلى قبلتهم ويعلّقون إسلامهم على ذلك فقد خاب رجاؤهم وما أنت بتابع قبلتهم، وأهل الكتاب أنفسهم يتمسّك كلّ فريق منهم بقبلته: فلا النّصارى يتّبعون قبلة اليهود ولا اليهود يتّبعون قبلة النّصارى، وكلّ فريق منهم يعتقد أنّ الآخر ليس على حقّ، فاثبت على قبلتك ولا تتّبع أهواءهم، فمن اتّبع أهواءهم - بعد العلم ببطلانها والعلم بأنّ ما هو عليه هو الحقّ - فهو من الظّالمين الرّاسخين في الظّلم.

الآيات من 142 - 143

التّمهيد لتحويل القبلة

امتثال لأمر الله تعالى

﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاء مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا قُل لِّلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاء إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللّهُ وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾.

أسباب النزول والمناسبة

سبب النزول: عَنِ البَرَاءِ ﷺ قال: "إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ صَلَّى إِلَى بَيْتِ المَقْدِسِ سِتَّةَ عَشَرَ شَهْرًا، أَوْ سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا، وَكَانَ يُعْجِبُهُ أَنْ تَكُونَ قِبْلَتُهُ قِبَلَ البَيْتِ، وَأَنَّهُ صَلَّى، أَوْ صَلَّاهَا، صَلاَةَ العَصْرِ وَصَلَّى مَعَهُ قَوْمٌ" فَخَرَجَ رَجُلٌ مِمَّنْ كَانَ صَلَّى مَعَهُ فَمَرَّ عَلَى أَهْلِ المَسْجِدِ وَهُمْ رَاكِعُونَ، قَالَ: أَشْهَدُ بِاللهِ، لَقَدْ صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ قِبَلَ مَكَّةَ، فَدَارُوا كَمَا هُمْ قِبَلَ البَيْتِ، وَكَانَ الَّذِي مَاتَ عَلَى القِبْلَةِ قَبْلَ أَنْ تُحَوَّلَ قِبَلَ البَيْتِ رِجَالٌ قُتِلُوا، لَمْ نَدْرِ مَا نَقُولُ فِيهِمْ، فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾"[1] وقال السفهاء من النّاس وهم اليهود: ﴿مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا﴾، فردّ تعالى: ﴿قُل لِّلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاء إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[2].

المناسبة بين الآيات: ما يزال القرآن يتصدّى لما كان عليه اليهود، وإن شاركهم فيه غيرهم من المشركين كإنكار تحويل القبلة؛ فقد كان النّبيّ ﷺ يصلّي وهو بالمدينة متّجهًا إلى الصّخرة التي في المسجد الأقصى ببيت المقدس، كما كان أنبياء بني إسرائيل يفعلون قبله، وظلّ كذلك ستّة عشر شهرًا، ولكنّه كان يحبّ استقبال الكعبة ويتمنّى ويدعو الله أن يتوجّه إلى قبلة أبيه إبراهيم وهي الكعبة، فكان يجمع بين استقبالها واستقبال الصّخرة، فيصلّي في جنوب الكعبة مستقبلًا الشّمال- ما بين الركنين-، فاستجاب الله له وأمره بالتّوجه إلى البيت العتيق، بعد هجرته إلى المدينة، ونزل قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾[3] قال اليهود والمشركون والمنافقون: ما الذي دعاهم إلى تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة؟ وقالوا: لقد اشتاق محمّد إلى مولده، وعن قريب يرجع إلى دينكم[4].

وقد بُدِئ الكلام بالردّ على اعتراضهم على التحويل قبل وقوعه، معجزة له ﷺ، ولقّن الله نبيّه الحجّة البالغة والحكمة فيه، ليوطّن نفسه عليه، ويستعدّ للإجابة، عند مفاجأة التّساؤلات.

وخلاصة الجواب: إنّ الجهات كلّها لله، فلا مزية لجهة على أخرى، ولله أن يأمر بالاتّجاه إلى ما يشاء من أيّ جهة، وعلى العبد امتثال أمر ربّه كما قال: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ إِنَّ اللّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[5].

فائدة: تخرج الرّحمات من فتحة القبّة الخضراء، وصولًا إلى ميزاب الرّحمة، فتتنزّل منه الرّحمات على الطّائفين

---

(١) سورة البقرة، الآية:١٤٣. والحديث رواه البخاريّ في صحيحه، عن البراء، حديث رقم:٤٤٨٦، كتاب: تفسير القرآن، باب: قوله تعالى: ﴿سيقولُ السّفهاءُ من النّاس﴾.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٤٢.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٤٤.

(٤) ذكره القرطبيّ في تفسيره، عن الزجّاج، باب: سورة البقرة، الآية: ١٤٢، ج٢، ص١٤٨.

(٥) سورة البقرة، الآية: ١١٥.

والعاكفين والرّكع السّجود في المسجد الحرام، ثمّ على أهل مكّة فالمواقيت ثمّ إلى سكّان العالم.

المعنى العام

﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاء مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا قُل لِّلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاء إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1].

يقول الحقّ ﷻ: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاء مِنَ النَّاسِ﴾ قيل: المراد بالسّفهاء كلّ من يعترض على الله، وهو ههنا مشركو العرب، وقيل: أحبار يهود، وقيل: المنافقون، والآية عامّة في كلّ من يعترض على حكم الله تعالى.

لمّا وقع تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، حصل لبعض النّاس من أهل النّفاق والرّيب والكفرة من اليهود ارتياب وزيغ عن الهدى، وتخبيط وشكّ، فقال كلّ من لا عقل له ولا دين ﴿مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا﴾ أي قالوا: ما لهؤلاء تارة يستقبلون كذا، وتارة يستقبلون كذا، فلو دام عليها لاتّبعناه، فأنزل الله جوابهم في قوله: ﴿قُل﴾ لهم يا محمّد ﴿لِّلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ أي أنّ الحكم والتّصرف والأمر كلّه لله، لا يختصّ ملكه بمكان دون مكان بخاصيّة ذاتيّة تمنع من إقامة غيره مقامه، بل الأماكن عند الله سواء، والخلق في حقّه سواء، ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ إِنَّ اللّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[2] ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَـكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ﴾[3] فالشّأن كلّه في امتثال أوامر الله، فحيثما وجّهنا توجّهنا، فالطّاعة في امتثال أمره، ولو وجّهنا في كلّ يوم مرّات إلى جهات متعدّدة، فنحن عبيده وفي تصرّفه، وخدّامه، وهو تعالى له بعبده ورسوله سيّدنا محمّد ﷺ وأمّته عناية عظيمة، إذ هداهم إلى قبلة إبراهيم خليل الرّحمن، وجعل توجّههم إلى الكعبة المبنيّة على اسمه تعالى وحده لا شريك له، أشرف بيوت الله في الأرض، إذ هي بناء إبراهيم الخليل ﷺ ولهذا قال: ﴿يَهْدِي مَن يَشَاء إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، ويضلّ من يشاء عن المنهاج القويم لا يُسأل عمّا يفعل وهم يُسألون. والصّراط المستقيم: ما ترتضيه الحكمة وتقتضيه المصلحة من التّوجه إلى بيت المقدس تارة، والكعبة أخرى، وفائدة تقديم الإخبار به هي توطين النّفس وإعداد الجواب.

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللّهُ وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ إنّما حوّلناكم إلى قبلة إبراهيم ﷺ، واخترناها لكم لنجعلكم خيار الأمم، لتكونوا يوم القيامة شهداء على الأمم، لأنّ الجميع معترفون لكم بالفضل، ﴿وَسَطًا﴾ والوَسَطُ ههنا الخيار والأجود، كما يقال: قريش أوسط العرب نسبًا ودارًا أي خيرها، وكان رسول الله ﷺ وسطًا في قومه، أي: أشرفهم نسبًا، ومنه ﴿الصّلاة الوسطى﴾ التي هي أفضل الصّلوات وهي العصر كما ثبت في الصّحاح وغيرها.

ولمّا جعل الله هذه الأمّة وسطًا، خصّها بأكمل الشّرائع وأقوم المناهج وأوضح المذاهب كما قال تعالى: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ﴾[4] ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[5].

(١) سورة البقرة، الآية: ١٤٢.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١١٥.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٧٧.
(٤) سورة الحج: ٧٨.
(٥) سورة البقرة، الآية: ١٤٣.

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿يُدْعَى نُوحٌ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: هَلْ بَلَّغْتَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيُقَالُ لِأُمَّتِهِ: هَلْ بَلَّغَكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: مَا أَتَانَا مِنْ نَذِيرٍ، فَيَقُولُ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ، فَتَشْهَدُونَ أَنَّهُ قَدْ بَلَّغَ﴾[1] وبزيادة عند الإمام أحمد: "قَالَ: ﴿ثُمَّ أَشْهَدُ عَلَيْكُمْ﴾[2].

يقول تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا﴾ إنّما شرعنا لك يا محمّد التوجّه أوّلًا إلى بيت المقدس، ثمّ نسخنا حكم القبلة وجعلناها الجهة التي كنت عليها بمكّة ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ﴾ ليظهر حال من يتّبعك ويطيعك، ويستقبل معك حيثما توجّهت ﴿مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾ مرتدًّا عن دينه لضعف إيمانه وقلّة إيقانه، ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً﴾ فإنّ التّحويلة عن القبلة الأولى والرّجوع عنها إلى الثّانية، أمر شاقّ وعظيم على النّفوس، ﴿إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللهُ﴾ إلا من سبقت له الهداية وحفّت به الرّعاية، فإنّه يدور مع مراد الله أينما دار، ويتبع رسوله أينما سار، وأنّ كلّ ما جاء به هو الحقّ الذي لا مرية فيه، وأنّ الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، فله أن يكلّف عباده بما شاء وينسخ ما يشاء، وله الحكمة التّامّة والحجّة البالغة في جميع ذلك، بخلاف الذين في قلوبهم مرض، فإنّه كلّما حَدَثَ أَمْرٌ، أَحْدَثَ لهم شكًّا، وبخلاف الذين آمنوا فهم على إيقان وتصديق، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾[3]. ولهذا كان من ثبت على تصديق الرّسول ﷺ واتّباعه في ذلك، وتوجّه حيث أمره الله من غير شكّ ولا ريب، سيّدًا من سادات الصّحابة. وقد ذهب بعضهم إلى أنّ السّابقين الأوّلين من المهاجرين والأنصار هم الذين صلّوا القبلتين.

﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ أي ما صحّ ولا استقام أن يضيّع الله صلاتكم إلى بيت المقدس بل يثيبكم عليها، وذلك حين سألوه ﷺ عمّن مات وهو يصلّي إلى بيت المقدس قبل تحويل القبلة فنزلت، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ تقليل للحكم أي أنّه تعالى عظيم الرّحمة بعباده لا يضيّع أعمالهم الصّالحة التي فعلوها.

(١) رواه البخاريّ في صحيحه، عن أبي سعيد الخدريّ، حديث رقم: ٤٤٨٧، كتاب: تفسير القرآن، باب: قوله تعالى: ﴿وكذلك جعلناكم أمّة وسطًا﴾.
(٢) رواه أحمد في مسنده، عن أبي سعيد الخدريّ، حديث رقم: ١١٢٨٣، مسند: المكثرين من الصحابة، مسند: أبي سعيد الخدريّ ﷺ، الحديث إسناده صحيح.
(٣) سورة التوبة، الآيتان: ١٢٤ - ١٢٥.

ما يستخلص من الآيات

في العقيدة

من هدي الآيات:

١. أفضليّة أمّة الإسلام على سائر الأمم لكونها أمّة الوسط، والوسطيّة شعارها. فنحن نحبّ ونؤمن بجميع الأنبياء، وأُمرنا بالعدل والقسط مع الجميع ممّن نحبّ أو نبغض، وبالميزان في كلّ شيء. عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، قال: "دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَسَلَّمَ فَقَالَ: ﴿أَلَمْ أُخْبَرْ أَنَّكَ تَقُومُ اللَّيْلَ وَتَصُومُ النَّهَارَ﴾ قُلْتُ: بَلَى، قَالَ: ﴿فَلا تَفْعَلْ، قُمْ وَنَمْ، وَصُمْ وَأَفْطِرْ، فَإِنَّ لِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِزَوْرِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِزَوْجِكَ عَلَيْكَ حَقًّا﴾"[1].

العبادة هي فعل ما أمر الله في الوقت. فلا تعلّق بجهة أو مخلوق، بل امتثال لأمر الله.

٢. جواز النّسخ في الإسلام فهذا نسخ في جهة القبلة بدلًا من الصّلاة إلى بيت المقدس إلى الصّلاة إلى الكعبة في مكّة المكرّمة.

٣. الأراجيف وافتعال الأزمات وتهويل الأمور، شأن الكفّار إزاء المسلمين طوال الحياة، فعلى المؤمنين أن يثبتوا ولا يتزعزعوا حتى يَظْهَر الباطلُ، وَيَنْكَشِفَ الزّيفُ وتنتهي الفتنة.

مثال ذلك تغيير أمر القِبْلة حينما حُوِّلَتْ إلى الكعبة، قالوا إن كانت قبلتهم حقًّا فما الذي ولّاهم عنها؟ فقال جلّ ذكره: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

٤. بيان أنّ الحكم في تقرير أمر القبلة إلى وقت التّحويل، وتحويلها من وقت التّبديل، كان اختبارًا لهم من الحقّ ليتميّز الصّادق من المارق، ومَنْ نَظر إلى الأمر بعين التّفرقة كبُر عليه أمر التّحويل، ومن نظر بعين الحقيقة ظهرت لبصيرته وجوه الصواب. ثمّ قال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ أي من كان مع الله في جميع الأحوال على قلبٍ واحد فالمختلفات من الأحوال له واحدة، فسواءٌ غيَّر أو قرَّر، أثبت أو بدَّل، حقَّق أو حوَّل، فَهُمْ بِهِ لَهُ في جميع الأحوال. من صلّى إلى جهة فترة من الزّمن، وهو يعتقد أنّها جهة الكعبة المشرّفة، ثمّ تبيّن خطؤه لا يقضي الصّلوات التي فات وقتها، وينطبق عليه قول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ ولكن يلتزم بعدها بالصّلاة إلى الجهة الصّحيحة.

من أسماء الله الحسنى: الرّؤوف الرّحيم

شرح الاسماء: الرّؤوف الرّحيم:

معناه من الرّأفة، وهي شدّة الرّحمة، فالرّأفة باطن الرّحمة، وهي من أخصّ أوصاف الإرادة، لأنّ الرّحمة إرادة كشف الضّر ودفع السّوء بنوع من العطف، والرّأفة زيادة لطف ورفق.

التّعلّق بأسماء الله الرّؤوف الرّحيم: طلب رأفته تعالى، والالتجاء إلى رحمته بكثرة الدّعاء، والرّغبة، ودوام الشّكر، والفرح بالمنّة.

الشهادة على الأمّة بأنّه بلّغ إليهم الرّسالة، وأدّى الأمانة، وقدّم واجب النصيحة:

لمّا كان الرّسول ﷺ مبلّغًا ومبيّنًا، ومربّيًا وقائدًا، حُقّ له أن يكون شاهدًا على أمّته يوم القيامة، بأنّهم سمعوا لتبليغه

(١) رواه البخاريّ في صحيحه، عن عبد الله بن عمرو، حديث رقم: ٦١٣٤، كتاب: الأدب، باب: حقّ الضيف.

لشرائع الله وأحكامه، وسمعوا بيانه للنصوص الربّانيّة، وأن يكون شاهدًا لمن آمن به وأطاع، وشاهدًا على من خالفه وعصى.
وقد بين الله تعالى هذه الوظيفة من وظائف الرسل، فقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَـٰؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾[1].
ووظيفة الشهادة هذه يقوم بها أيضًا أتباع الرسول، الذين بلّغوا رسالته للنّاس في عصره، وللأجيال من ورائه، وفي ذلك يقول الله تعالى في حقّ أمّة سيّدنا محمّد ﷺ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[2]. الآية تعني أنّ الله تعالى جعل أمّة سيّدنا محمّد ﷺ أمّةً وسطًا، أي عادلةً وخيّرة، لكي تكون شاهدةً على الأمم الأخرى يوم القيامة، ويشهد لهم رسول الله ﷺ بالصدق والعدالة.

التوضيح بالمثال:

حينما ادّعى نبيّ الله نوح عليه السلام[3] أنّه بلّغ رسالة الله إلى قومه، طُلب منه أن يُحضر بيّنة **(أي دليلًا وشهودًا)** على صدقه في تبليغ الرسالة. فجيء بالشهود، فقيل لهم: من يزكّيكم **(أي: من يشهد لكم بالصدق والعدالة)؟**
فأجابوا: "يزكّينا ويشهد لنا بالعدالة سيّد العالمين وأكرم الخلق عند الله تعالى، وهو رسول الله ﷺ".

الخلاصة:

ليس هناك شرف أعظم أو مكانة أكرم من أن يشهد رسول الله ﷺ لإنسان بالإيمان والصّدق والعدالة.

في الأمر والنّهي

العمل بالآيات:

- إيّاك وافتعال الأزمات أو تضخيم القضايا، فهو شأن المنافقين من اليهود والكفّار. احذر من ذلك، وحذّر أحبابك. قال الله تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾.
- تأمّل فتنةَ التبس فيها الحقّ على المسلمين، واسأل الله الهداية والتوفيق فيها. قال الله تعالى: ﴿يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.
- اجعل دعاءك خالصًا من قلبك في الصّلاة بقولك: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.
- انصح نفسك ومن تحبّ بإتقان الصّلاة والحضور فيها قدر استطاعتك، وتدبّر معاني سورة الفاتحة أثناء الصّلاة.
- تذكّر أنّ الله تعالى سمّى الصّلاة إيمانًا، وأنّه كتب واقع كلّ مسلم مع الصّلاة ليحاسبه عليها، ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ بِهِ العَبْدُ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ عَمَلِهِ صَلَاتُهُ، فَإِنْ صَلُحَتْ فَقَدْ أَفْلَحَ وَأَنْجَحَ، وَإِنْ فَسَدَتْ فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ»[4].

(١) سورة النحل، الآية: ٨٩.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٤٣.
(٣) المشهود أمّه سيّدنا محمّد ﷺ، والمعدل للشهداء سيّدنا محمّد ﷺ، بل إنّ أمّة سيّدنا محمّد ستشهد لكلّ نبيّ تكذبّه أمّته أو قومه.
(٤) رواه التّرمذيّ في سننه، عن أبي هريرة، حديث رقم: ٤١٣، كتاب: أبواب الصّلاة، باب: ما جاء أنّ أوّل ما يحاسب به العبد، الحديث حسن غريب.

التّخلّق باسم الله الرّؤوف:

- يكونُ بأن ترأفَ بِالخَلقِ وتشعرَ بهِم وتتعاطفَ معهم وترحمهم، فتفرح لفرحِهم وتواسيهم في حزنهم.
- وهو بِأن تشفِقَ على عبادِ الله وتسعى جهدَك في دَفعِ الضّرِ عنهُم وحِمايَتِهِم مِن كلّ أذى.

التّخلّق باسم الله الرّحيم:

- أن تسعى جهدَك في قضاء حوائجِ النّاسِ وكلّ ذي روحٍ من غير سؤالهم، ومن غير أن يطلبوا مِنك، لأنّك أنت من يشعر بهم؛ فَأَحَبُّ العِبادِ إلى الله أنفَعُهُم لِعِبادِه.
- إغاثة الملهوفين والمساكين، والرّفق بعباد الله أجمعين، سواء منهم الطّائعين، أو العاصين، ويكون ذلك شكرًا لله لما أسداه إليك من نِعم.

الحكمة: من علامة النجاح في النهايات الرجوع إلى الله في البدايات.

في السّيرة والشّمائل

عَنْ أَنَسٍ ﷺ، قَالَ: مرَّ النّبيّ ﷺ بِجَنَازَةٍ، فَأَثْنَوْا عَلَيْهَا خَيْرًا، فَقَالَ: ((وَجَبَتْ))، ثمّ مرَّ بِأُخْرَى، فَأَثْنَوْا عَلَيْهَا شَرًّا- أَوْ قَالَ: غَيْرَ ذَلِكَ- فَقَالَ: ((وَجَبَتْ)) فَقِيلَ: يَا رَسُولَ الله، قُلْتَ لِهَذَا وَجَبَتْ، وَلِهَذَا وَجَبَتْ، قَالَ: ((شَهَادَةُ القَوْمِ المؤمنين شُهَدَاءُ الله فِي الأَرْضِ))[1].

وعن عَبْد العَزِيزِ بْن صُهَيْبٍ، قَالَ: سَمِعْتُ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ ﷺ، يَقُولُ: مَرُّوا بِجَنَازَةٍ، فَأَثْنَوْا عَلَيْهَا خَيْرًا، فَقَالَ النّبيّ ﷺ: ((وَجَبَتْ))ثمّ مَرُّوا بِأُخْرَى فَأَثْنَوْا عَلَيْهَا شَرًّا، فَقَالَ: ((وَجَبَتْ))فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ ﷺ: مَا وَجَبَتْ؟ قَالَ: ((هَذَا أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ خَيْرًا، فَوَجَبَتْ لَهُ الجَنَّةُ، وَهَذَا أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ شَرًّا، فَوَجَبَتْ لَهُ النَّارُ، أَنْتُمْ شُهَدَاءُ الله فِي الأَرْضِ))[2].

وعَنْ أَبِي الأَسْوَدِ، قَالَ: أَتَيْتُ المَدِينَةَ وَقَدْ وَقَعَ بِهَا مَرَضٌ وَهُمْ يَمُوتُونَ مَوْتًا ذَرِيعًا، فَجَلَسْتُ إِلَى عُمَرَ ﷺ، فَمَرَّتْ جَنَازَةٌ، فَأُثْنِيَ خَيْرًا، فَقَالَ عُمَرُ: ((وَجَبَتْ))، ثمّ مُرَّ بِأُخْرَى، فَأُثْنِيَ خَيْرًا، فَقَالَ: ((وَجَبَتْ))، ثمّ مُرَّ بِالثَّالِثَةِ، فَأُثْنِيَ شَرًّا، فَقَالَ: ((وَجَبَتْ))، فَقُلْتُ: وَمَا وَجَبَتْ يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ؟ قَالَ: قُلْتُ كَمَا قَالَ النّبيّ ﷺ: ((أَيُّمَا مُسْلِمٍ شَهِدَ لَهُ أَرْبَعَةٌ بِخَيْرٍ أَدْخَلَهُ الله الجَنَّةَ))، قُلْنَا: وَثَلاثَةٌ، قَالَ: ((وَثَلاثَةٌ))، قُلْتُ: وَاثْنَانِ، قَالَ: ((وَاثْنَانِ))، ثمّ لَمْ نَسْأَلْهُ عَنِ الوَاحِدِ"[3].

في السّلوك

الإشارة: التّفاضل بين الرّجال إنّما يكون بالعلم والحال، فمن قَوِيَ علمُه بالله كان أعظم قدرًا عند الله، والعلم الذي به الشّرف عند الله هو العلم بذات الله وبصفاته وأسمائه، وكذا العلم بأحكام الله إذا حصل معه العلم بالله، فكلّما انكشف الحجاب عن القلب كان أقرب إلى الربّ، وانكشاف الحجاب يكون على قدر التّخلية والتّحلية، فبقدر ما

(١) رواه البخاريّ في صحيحه، عن أنس، حديث رقم: ٢٦٤٢، كتاب: الشهادات، باب: تعديل كم يجوز؟.
(٢) رواه البخاريّ في صحيحه، عن أنس، حديث رقم: ١٣٦٧، كتاب: الجنائز، باب: ثناء الناس على الميت.
(٣) رواه البخاريّ في صحيحه، عن أبي الأسود، حديث رقم: ٢٦٤٣، كتاب: الشهادات، باب: تعديل كم يجوز؟

يتخلّى القلب عن الرّذائل، ويبعد عن القواطع والشّواغل، ويتحلّى بأنواع الفضائل، ينكشف عنه الحجاب ويدخل مع الأحباب، وبقدر ما يتراكم على القلب من الخواطر والشّواغل، ويدخل عليه من المساوئ والرّذائل، يقع البعد عن الله، ويطرد العبد عن باب الله، فلا يدلّ على كمال العبد كثرة الأعمال، وإنّما يدلّ على كماله علوّ الهمّة والحال، وعلوّ الهمّة على قدر اليقين، وقدر اليقين على قدر المعرفة، والمعرفة على قدر التّوجّه والتّصفية، والتّوجّه تابع للقسمة الأزليّة ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾.

الإشارة: ﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾ الوسط: الخيار أو العدل، فجعل هذه الأمّة خيار الأمم، وجعل هذه الطّائفة خيار هذه الأمّة فهم خيار الخيار. فكما أنّ هذه الأمّة شهداء على الأمم في القيامة فهذه الطّائفة هم الأصول، وعليهم المدار، وهم القطب، وبهم يحفظ الله جميع الأمّة، وكلُّ من قَبِلَتْهُ قلوبهم فهو المقبول، ومن رَدَّتْه قلوبهم فهو المردود. كن لله وليًّا، وإلا فكن في قلب وليّ، فالحكم الصّادق لفراستهم، والصّحيح حكمهم، والصّائب نظرهم، عصم جميع الأمّة من الاجتماع على الخطأ، وعصم هذه الطّائفة من الخطأ في النّظر والحكم والقبول والردّ، ثمّ إنّ بناءَ أمرهم مُسْتَنِدٌ إلى سُنَّة الرسول ﷺ، فكلّ ما لا يكون فيه اقتداءٌ بالرّسول ﷺ فهو عندهم مردود.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النّبيّ ﷺ قَالَ: «إِذَا أَحَبَّ اللهُ عَبْدًا نَادَى جِبْرِيلَ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلانًا فَأَحِبَّهُ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلانًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثمّ يُوضَعُ لَهُ القَبُولُ فِي أَهْلِ الأَرْضِ»[1].

في الإعجاز العلميّ

في أشراط السّاعة

في الأدعية والأذكار

- اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَوْدِعُكَ يا مَن لا تَضيعُ ودائِعُهُ شَهادَةَ أن لا إِلهَ إِلَّا اللهُ وأنَّ سَيِّدَنا مُحَمَّدًا رَسولُ اللهِ ﷺ وعَلى آلِهِ وصَحْبِهِ وسَلَّمَ وأسْأَلُكَ أنْ تَرُدَّها عَلَيَّ وعَلى والِدَيَّ وأوْلادي كُلَّما احْتَجْنا إِلَيْها وعِنْدَ آخِرِ نَفَسٍ مِنْ أنْفاسِنا. آمينَ... آمينَ... آمينَ... والحَمْدُ للهِ رَبِّ العالَمينَ.
- اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنَّكَ أَنْتَ اللهُ الرَّؤوف الرَّحيم، رَبّ العرش الكَريم، مالك يوم الدّين أَنْ تُعِزَّ الإِسلام والمسلمين، وأن تجمع كلمتهم على البرّ والتقوى، وأن تكفيهم شرّ الماكرين، وشرّ الكائدين، وشرّ الأوبئة والمضار، وأسألك يا واسع الرّحمة والمغفرة، أن تحقّق صالح أمنياتي وصالح أمنيات المسلمين.

(١) رواه البخاريّ في صحيحه، عن أبي هريرة، حديث رقم: ٦٠٤٠، كتاب: الأدب، باب: المقة من الله تعالى.